عقيدة الحبل بلا دنس في الكنيسة السريانية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

رحب العالم الكاثوليكي في الخافقين ترحيباً بنوياً عذبا جذاً بالرسالة العامة التي أصدرها ابو المؤمنين العام البابا بيوس الثاني عشر بتاريخ ٨ ايلول ١٩٥٣ معلناً الاحتفال بمرور قرن كامل على ما قرره سالفه الخالد الاثر البابا بيوس التاسع تقريراً احتفالياً بشأن عقيدة الحبل بمريم العذراء المغبوطة دون دنس او عيب البتة .

ولقد طفح قلبي حبوراً وشكراً عندما أفضى اليّ مدير مجلة المشرق الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي الجليل لاكتب كلمة في هذا العدد أنقلها عن تصانيف ابمة السريان ومشاهيرهم .

ولعمري اي قلب لا يستعذب ويستحلي تلك الصفة الجميلة الفريدة التي لم تبن بها الرب السخي الا على العذراء الجزيلة قداستها والفائقة طهارتها ونقاوتها منذ اللحظة الاولى لتكوينها في حشا والدتها القديسة حنة ؟

ويحق لكنيستنا السريانية خصوصاً ان تفتخر الافتخار كله لان اولى البقعات الصادعات الساطعات التي دبج بها الحبر الاعظم المالك سعيداً رسالته الموماً اليها عن عصمة العذراء من الخطيئة الاصلية قد نقلها عن تصانيف أبينا مار افرام السرياني ملفان الكنيسة الكاثوليكية وهي : « انك يا يسوع قد أحرزت انت وامك البهاء كله . لانكما وحدكما منزهان عن كل عيب ! » .

ولعمري اذا كانت زيارة العذراء القديسة لنسيبتها اليشباع قد قدست يوحنا جنينها وهو بعدُ في مستودع أمه أفيكون مستغرباً وعجيباً ان تحبل بها أمها دون وضر أو دنس ؟ حاشَ والف كلا !

على اننا في مقالنا هذا نغمض عن سرد جميع الصفات البديعة النادرة التي أطلقها آباؤنا السريان عن العذراء الطاهرة . ونقتصر عن ذكر ما جبروا به تآليفهم من الصفات الشائقة المتوطة بجمالها النقي دون درن اصلي ودون وصمة البتة . فقد صرحوا بانها عليها السلام تضارع ابنها القدوس بنقاوتها وقداستها .

وانها تفوق الكواريب والسواريف وجميع الاجناد العلوية بطهارتها . وانها لؤلؤة يتيمة لا درن فيها اصلاً . وهي هيكل طاهر نقيّ استقرّ فيه يسوع ابنها ربّ القداسة . وتابوت العهد . وجرّة جدعون وطأها . وعرش الاله العلي . وام الحياة والخلاص . وسماء ثانية حلّ فيها رب السماوات يسوع القداسة . وهي الملاحقة لصنة آدم وحوّا . والديها والعيدة اليها والى ذريتها حلة البرارة الاولى الخ الخ .

بعد هذا التصريح الواضح الجلي رأينا ان ننقل عن السريانية ما اثبته مشاهير آبائنا في قصائدهم الرنانة الخالدة عن هذه الحقيقة الدينية الراهنة :

اولاً : الجبل بلا دنس ومار افرام الملفان الكبير († ٣٧٣)

أنشد مار افرام في باكورة قصائده المشهورة بقصائد نصيبين[1] مخاطباً يسوع فادينا عزّ شأنه :« انك انت وأمك وحدكما تسران جدًّا وتفوقان الجميع . اذ لا عيب فيك ولا شائبة في أمك » . وأردف : « نسجت مريم حلة المجد ووشّحت أباها الذي تعرّى بين الاشجار . وسترت عريه . حوّاء امرأته اسقطته والعذراء ابنته أنهضته فانتصب جذلاً محبورًا » . واستطرد :« بكَ يا ربي وبأمك اجتمعت الكمالات بأسرها من كل وجوهها . فلا عيب فيك ولا شائبة في أمك ... لقد أحرزت يا يسوع انت ووالدتك البها . كله . لانكما وحدكما متزّهان عن كل وصمة » .

وكتب في نشيد بشارة العذراء :« ان مريم هي حديقة الله العلي . وليس فيها شجرة معرفة الخير والشرّ ولا حيّة تغري وتطغي ولا حوّاء تهلك وتردي . لاح المخلص من مريم واعاد المنفيين الى السماء . »[2]

وكتب في وصفه انتقال العذراء الى السماء : « مرحباً بنفس نقيّة مقدسة لم تتلوّث قط بخطيئة ؟ مرحباً بجسد نقيّ طاهر أعاد الحياة الى آدم ... ان

---

١) هذه القصائد نشرها الاستاذ غوستاف بكل الالماني عام ١٨٦٦ وصرح في المقدمة ان اقوال مار افرام عن الجبل بلا دنس قد حملته ان يهجر البروتستانية وينضم الى الكنيسة الكاثوليكية عام ١٨٦٥ ثم ارتقى الى الرتبة الكهنوتية عام ١٨٦٧ وتوفي عام ١٩٠٦ بالغاً ٦٨ سنة .

٢) فتيف ١ : ١٣١

الروح القدوس قد اعفى مريم من لعنة الامّ الاولى ، لانها لم تفتح بابا للخطيئة »[1].

وانشد كذلك : « ان للعذراء الطاهرة رتوات من المحاسن الجميلة لا ادري باي منها اقرظها . فهي والدة الله وهي اعجوبة العجائب والسماء الثانية. وقد حملت حامل البرايا طرًا باشارته »[2].

وقد نقل اليونان والسريان الملكيّون هذه العبارة الذهبيّة عن مار افرام وهي : « انك اكرم من الشاروبيم وأرفع سموًا من جميع الطغمات السماوية ». وأدمجوها في انشودتهم الشهيرة « يواجب الاستبشال حقًا نغبط . . . » وهم يترنمون بها بنغمات شتى[3].

ثانيًا – الحبل بلا دنس والقديس ربولا مطران الرها (٤١٣–٤٣٥)

شُغف هذا القديس الجليل بمحبة والدة الله العذراء المجيدة . وأبدى في مواعظه وكتاباته وانشيده محامداته خصوصاً عن أمومتها الالهية . وارتحل الى قسطنطينية والقى في كنيستها الكبرى خطبةً باللغة اليونانية مفتدًا ومزيفًا دعوى نسطور الملحد . وراسل في هذا المعنى صديقه مار قرلس الاسكندري[4]. ويكرم السريان الملكيون تذكاره في ٩ ايلول[5] والسريان في ١٧ كانون الاول.

ونظم مار ربولا اناشيد لطيفة بعنوان « احتفال » ابتهالات تُعدُّ نغماتها الرخيمة من أعذب النغمات وأشجاها وأشدّها تأثيرًا في الافئدة . ننثر في تضاعيفها دررًا نفيسة قدّمها للعذراء الطاهرة . نقتطف منها ما له صلة بموضوعنا :

أنشد في الابتهال الاول :

« يحييك الجميع ايتها القديسة والدة الله مريم . يا كنزًا ثمينًا ونبراسًا لامعًا يضيء المسكونة كلها . . . يا هيكلًا طاهرًا نقيًا لبارئ البرايا جمعاء . . . لقد حيرني يا اخوتي رونق مريم الفائق البهاء . . . فهي فتحت ينبوع الخلاص وغدت أسمى وأرفع من الملائكة ! من تراه لا يحتفي بتذكارك ايتها العذراء الطاهرة الفائقة القداسة ؟ ومَن لا يكرّم عبدك يا ام الله ؟ انك أسمى وأبهى من البهاء نفسه ! »

---

١) فنقيث ٦ : ٤٠٦

٢) الاشجيم ١٣٧

٣) المشرق ٣١ : ١٩٣٣ : ٨١٤.

٤) اخبار الشهداء والقديسين : طبع الاب بولس بجان ٦ : ٣٩٦–٤٧٠

٥) كلندار الكنيسة الانطاكية (المشرق ٥ : ١٩٠٢ : ٦٨) .

وأنشد في الابتهال الثاني :

« عليكِ السلام يا مريم والدة الله الكلمة العليّ . ايتها العذراء الطهور القديسة . عليكِ السلام يا سماءً ثانيةً لكلمة الآب الازليّ . . . انا استنادًا الى الايمان الحق نعظم ام الله المفعمة قداسةً . ولكن انى يتاح للسان الترابي ان يستوفي مديحها وقد قصر الملاك عينه في تقريظها ؟ »

وترنّم في الابتهال الثالث :

« اصبحتِ يا مريم مدعاةً الى خلاص جنسنا المؤمن . ومجلبةً للخيرات والبركات ومجدّدةً لمتفنا . . . كيف يتيسر لنا ان نقرّظك ايتها العفيفة ؟ انك وحدك فريدة بالقداسة . ومنكِ تتدفق الخيرات والبركات لجميع المؤمنين . . . وطدي ايانا وأنيري العالم كافة » .

وهتف في ابتهاله السادس :

« ان أمركِ ايتها النقية الطاهرة يُدهش الملائكة عينهم . لانكِ ولدتِ وانت عذراء ابنَ الله المساوي لوالدهِ . وقد اتخذ جسدًا من طهارتكِ ليتقذ آدم وذريته » .

وترنّم في ابتهاله السابع :

« اتخذ ابن الله الى مستودع بنت داود قرفع راس جنسنا الذي خفضته مخالفة الوصية . هو الكريم الذي خلق من مريم بنت داود لصنة حوّاء وانّلد منها » .

أخيرًا يحدّثنا مار يعقوب المغبوط بنشيده التالي البديع عن عواطف العذراء المفعمة وقةً وعذوبة وروعةً ومهابةً فيقول :

« تتساءل مريم قائلةً : مَن مِثلي عزيزة قديرة حملت ربّ الملوك ؟ بي صوّر الملهَمون أجمع والانبياء كافة اسرارهم وألغازهم وأمثالهم . اني أسمى من الملائكة وأقدس من أجواق السواريف ! ! هذه هي ابنة داود . فيها نشأ غصن الحياة والخلاص الذي اياه تسبّح . ولوالدته نقرّظ جميعنا ! » (١) .

ثالثًا — بالجبل بلا دنس ومار اسحق الملفان († ٤٦٠) .

أزهر مار اسحق الملفان في القرن الخامس وكان رئيس دير كبير في ضواحي انطاكية . واشتهر في عهد المجمع الافسوسي ٤٣١ والمجمع الخلقيدوني ٤٥١ المسكونيين(٢) وورد اسمه ما بين آباء المجمع الافسوسي(٣) . ونظم قصائد دقيقة محكمة(٢) فنّد بها زعمي نسطور واوطيخا الملحدَين . وأيد بأبلغ عبارة

١) كتاب الفرض السوسي ٧٧-١٢٧

٢) مخطوطة دير الشرفة ٤-٧

٣) نشرها عام ١٩٠٣ الاب بولس بيجان المذكور في المنير .

وافصح لهجة انّ في مخلصنا يسوع اقنوماً واحداً وطبيعتين .

وخلّف مار اسحق خطبا سريانية نقلت الى اليونانية ومنها الى العربيّة . ورجح الاب لويس شيخو اليسوعي الخالد الآثار ان ناقلها هو ابو الفضل الانطاكي الملكيّ . فرأينا ان نقتصر منها على ما اثبته الملفان القديس بشان الحبل النقيّ بالعذراء القديسة قال :

« استحقت السيدة العذراء الشرف والبهاء والجمال والرفعة بالكمال على طغمات الملائكة . . . اليوم يعزي آدم جنسنا بمريم القديسة المباركة الجليلة المجبلة الطيبة الآدمية . ملكة السلالة الانسية . الطاهرة النقية التي لم يوجد في الاجيال الناشئة اطهر منها جسداً ! القديسة التي لم يوجد في البرايا العقلية اقدس منها نفساً !

« ان الجليلة في النساء نالت نعمة الله باصطفائه اياها ليتجسد منها ويتأنس من قداسة دمائها . فلم يكن في الاولين من يضاهي طهارتها ولا صار في الاخرين من يشاكل قداستها . ولن يصير ذلك قط ! . .

« فتبادر اجمعين الى اكرام سيدتنا وملكة طيبتنا مادحين جمال طهارتها . موقرين دوام بتوليتها . مكرمين سمو قداستها . يا فخر البنات ويا زينة الامهات . يا والدة لا رجل لها . ويا بتولا حاملة لولدها . يا عجباً عجبت منه الملائكة والانبياء والمرسلون . وعجدته الملائكة الاقدسون !

« فاشفعي بنا يا من لا تُرد شفاعتها ولا تُخيّب ضراعتها . القريبة من اللاهوت الازلي والناسوت العنصري . الناشقة العلوّ على المواكب الشاروبية . العالية السموّ على الصفوف السارافية . . لكي نصل بشفاعتك عند انتقالنا الى الخير الدائم والنعيم في ملكوت السماوات والسكنى في دار الحياة »[1] .

رابعاً — الحبل بلا دنس ومار يعقوب اسقف سروج (٤٥١ — ٥٢١)

نظم مار يعقوب اسقف سروج الملفان الكبير قصائد مستملحة جمة في تقريظ مناقب العذراء الشائقة النادرة . نكتفي منها بخلاصة ما نثره من اللآلئ البتولية في قصيدته البديعة بعنوان « تقريظ العذراء الطوباوية والدة الله مريم » . التقط منها آباء السريان الموارنة شذرات أدمجوها في « الاشحية » اعني الصلوات الاسبوعية[2] وقس عليهم آباء السريان الكاثوليك والسريان اليعاقبة .

وغير خافٍ ان فريقاً من المستشرقين وغيرهم زعموا ان مار يعقوب لم يكن ارثوذكسياً قحاً او بالاحرى كاثوليكياً محضاً . فتجردنا لتزييف زعمهم ونشرنا

١) المشرق ١٧ : ١٩١٤ : ٢٧٥ — ٢٧٧

٢) صفحة ١١٣ و ٣٨١ و ٤٤٨ الخ .

في هذا الصدد عام ١٩٤٦ كتابا دعمناه باصدع البراهين وأدمغ الحجج . وكتب لنا رهط من الائمة المدققين يحبذون مـا أثبتناه وقررناه . نخص بالذكر منهم البحّاثة الشهير الاب بولس بترس اليسوعي البولنديّ . اذ نشر في هذا الصدد مقالاً مستوفى[1] .

بعد هذا الشرح الوجيز نعرّب نبذًا من القصيدة المنوّه بها قال :

« دعتني العذراء الجزيلة القداسة لامدحها . فلتنتق سمعنا ولتصغ الى خطابنا النقي البعي لئلا نلحقنا ملامة او حقارة . فهي السماء الثانية حلّ في مستودعهـا رب الاعالي ولاح منها ليبدّد غياهب الظلام عن الاقطار . هي المباركة في النساء استأصلت اللعنة من الارض ووضعت حدًا للعقوبة . هي المغيثة النقية الممتلئة محاسن القداسة . يعجز لساني عن استيعاب اوصافها . هي حواء ثانية ولدت الحياة للموتى ومزقت صكّ ابيها حواء وكفّرت عنه . مدت يدها الى ابيها العاثرة واخضتها من ورطة الخية القتالة . هي ابنة سجت حلّة المجد ورتجت جبـا اباها وتلافت عريه بين الشجر . هي مصورة جيّة زاهية تنادها الملك ودخلها وحلّ فيها ولم تُفتح ابوابها بعد ما غادرها . . . لا نظير لها اصلا بين العذارى والقديسات والعفيفات ولا بين النساء والوالدات والجاريات .

« اني امدح مريم متعجبًا محتارًا . لا ادري الى اي ذروة سامية ارتفعت ابنة البشر . فهل اختارها ابن الله تكرمًا وتفضلًا ام هي اعجبته فاصطفاها امًا له ؟ من الواضح الجلي ان ابن الله العلي هبط الى الارض تكرمًا فرحبته به مريم لان قداستها تفوق كل قداسة . نظر الى تواضعها وحلمها وتقاوتها وحلّ فيها . ولمّا كان التواضع حدّ الكمال استأثر الله العلي الحلول في المتضعين .

« اشتهر بالتواضع موسى وابرهيم ويوحنا المعمدان وغيرهم ممن ضارعهم . بيد انهم لم يبلغوا اصلًا ما بلغته مريم بتواضعها . وبرهاننا على ذلك انه لم يرتق احد الى ما ارتفعت اليه مريم . فلو شوهدت عذراء أطهر وأنقى من مريم لحل في تلك وعدل عن مريم . ولو وُجدت نفس أطهر وأقدس من نفس مريم لاصطفاها واهل مريم . فقد نظر سبحانه السماء كافة وانتقى منهن أجملهن وأقدسهن . . . اختار من السماء وحل في العذراء المجيدة لانه لم يكُ لها نظير في الدنيا . . . عذراء وضيعة نقية طاهرة مترهة عن الدنس استحقت ان تكون امه . . .

« رضي عزّ شأنه ان يستقرّ في هيكل قريد بقداسته وهو مستودع مريم المتلألئ بالبتولية . وعرف انها مقدسة كليا بخواطر مقدسة . ومزدانة بمحاسن طبيعية وارادية . ومترهة عن كل دنس ووصمة . لاحت منذ الحبل بها دون شائبة . وسارت في طريق قويمة دون جريرة البتة . طبع نزيه . مزدانٌ بخلال جميلة نقية . عذراء بجدها . قدوسة بنفسها دائمًا وابدًا ! . . .

« عرفت انها صارت امًا لابن الله الازليّ فآمنت وصدقت انها هي وحدها أطهر وأقدس من كل من في الدنيا . شاء الآب القدوس ان يختار امًا لابنه فتريث زمنًا حتى اصطفى فتاة كلها محاسن خفية وجلية . فريدة ممتازة بقلب نقي لتدرك ما صح فيها من الاسرار . . .

---

(١) *Analecta Bollandiana*: Tome LXVI, 1948 . Page 134-198

البابا بيوس التاسع

محدّد عقيدة الحبل بلا دنس

ولد في ١٣ اذار ١٧٨٢ . تسنم العرش البابوي في ١٦ حزيران (١٨٤٦ - ١٨٧٨) . مدة ٣٢ سنة . وهي أطول حبرية في تاريخ الكنيسة .

حدّد عقيدة الحبل بلا دنس في ٨ كانون الاول ١٨٥٤ . وايضاً العصمة البابوية في المجمع الفاتيكاني في ٨ كانون الاول ١٨٧٠ .

توفي في ٢ شباط سنة ١٨٧٨ بعد حياة هي سلسلة فضائل وجهاد وامجاد .

قبل دعوى تطويبه وتثبيته البابا الطوباوي بيوس العاشر ١٩٠٤ .

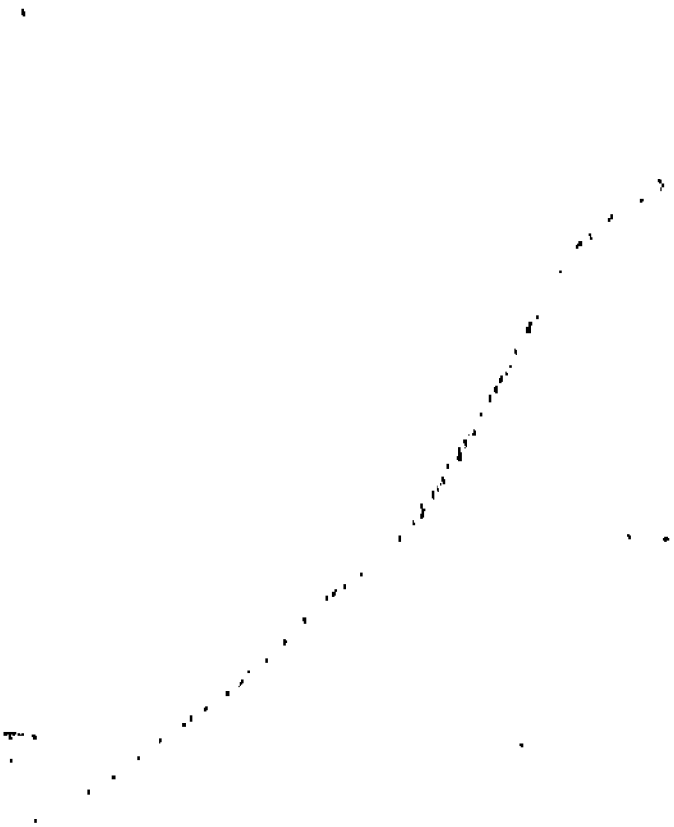

فالله عز وجل يجب الحبل الاختياري ويثني على المشيئة الصالحة اذا أرضته . وهذه العذراء التي افرزها قد اعجبته فاصطفاها امّ لابنه لانها تعرّدت بتواضعها وطهارتها واستقامتها ومشيئتها الصالحة . فاركانت نفسها مشوّهة بوصمة او دنس لاصطفى بدلا منها امّا متزهة خالصة من كل شائبة . . .

« فحبال مريم يفوق كل جمال على الاطلاق . ولم يظهر في الدنيا بأسرها جمال أبدع وأروع منه ! تنفّست مريم في مستودع امها من كل وصمة مثلما تنفس يوحنا المعمدان والسيّاع وايليا وملكيصادق المشاهير العظام .

« هي عهد البؤس والشقاء الذي فتك بآدم واقبل عهد الصلاح . . . فعوضاً عن حواء التي سجلت امّها بين الشجر وافت مريم ابنتها فكفرت عن ديونها وديون آدم . . . جددت مريم البنيان الذي قوّضته الحيّة . « وحيث كثرت المطيّة هناك طفحت النعمة » (روم ٥ : ٢٠) لتجني آدم . ثم ان الحيّة لم تسلّم على حواء لانها لم تقصد الّا الغش والخداع والغواية والهلاك . اما جبرائيل سفير ابن الله الذي فقد جاء مريم بشرى الفداء والخلاص . حياها بالسلام وبلغها بشرى الخلاص والامان . . . وبقدر ما استوحبت حواء اللوم بسبب صمتها بقدر ذلك استحقت مريم الشرف والثناء بجدتها مع الملاك . . . »

وختم مار يعقوب الجليل قصيدته هذه البديعة بابيات اقتضبها من تصانيف مار افرام قال :

« تجلت لنا مريم مثل رسالة مختومة انطوت على اسرار الرب وغوامضه . فجسدها الطاهر الذي يحاكي قرطاساً ناصع البياض دوّن فيه كلمة الله اسمه . على ان ابن الله هو الكلمة والعذراء هي الرسالة التي سجل فيها صكّ العفو والغفران لجميع المذنبين . . . هنيئاً لها الان جمال قداستها يفوق كل جمال وقدرها منتشرة في كل الاصقاع . طوبى لها لانها جددت ذرية آدم وانشأتها من سقطتها . عليها السلام لان حسدها لم يتدنس قطعاً وأصلاً . . . »[1]

ليت شعري اي عقل لا يقتنع ببراهين هذا القديس الملقان النابغة ؟ أم اي قلب لا يطرب بنفحاته الساحرة وتعابيره السجدية ؟ أم اي لسان يتيسر له ان يترسل مثله في مديح جبل العذراء المنبوطة المنزّه عن كل وضر او دنس او شائبة ؟

خامساً – الحبل بلا دنس والحلولات القانونية الاسبوعية

انطوت الحلولات القانونية الاسبوعية على مُلَح لذيذة عذبة بشأن الحبل البريّ من الدنس فرأينا ان نعرّب منها ما يلي :

١ً – صلاة يوم الاثنين

« ان العذراء مريم هي حقل مبارك أنبت فيه سنبلة الافراح . . . وهي لؤلؤة لا دون فيها مديحة في تاج الملك : اينما توجهت لاح سناؤها وجاؤها كالشمس » .

١) نقلاً عن ملحق كتاب مار سهدونا . طبع الاب بولس بيجان ٦١٤ – ٦٢٩

٣ – يوم الاثنين

« اين مريم هي مقصورة الاقداس . انحدر الملك واستقر فيها . . . هي بهاء جديدة حسنت الله الكلمة . . . بشرى يا مريم اقبلت نعمة اسما الاولى . وبك فقرنا بالخلاص . . . بك ايتها العذراء القديسة تعانقت عروسة مع عريس . فالعروسة تشير الى جسدك النقي والعريس الذي لم تخرق تشير الى حشاك » .

٣ – يوم الاربعاء

أرصدت الكنيسة السريانية يوم الاربعاء للاحتفاء بذكرى العذراء المجيدة. ففي صلاة ذلك اليوم نقول :

« فليكن تذكار صالح في الافطار الاربعة في الكنائس والاديار للعذراء مريم الطاهرة الفائقة القداسة بتوليتها . استحسنها ملك الملوك وانحدر فاستقر في مستودعها . . . تشبه العذراء سحابة جسية وبهاء لاح فيها شعاع البهارة . . . هي مركبة لحمية حملت حامل السماوات والارض . . . المجد للاب القدوس الذي ارسل ابنه القدوس فانحدر وحل بالقداسة في حشا مريم الطهور الاقدس . . . هنيئاً لك ايتها المقصورة الحافلة بزينتها . فيها رحبت بالبناء العلوي ، حمائم وانت بكرٌ . ولدتِ ولبثت طاهرة نقية . . . اصبحت مريم بهاء ثانية ثوى فيها ابن الله القدوس بقداسة . . . تجسدت يا كلمة الله الحي بمشيئتك من مريم المنبوطة المتفردة بطهارة نفسها وقداسة جسدها . . . رحبت مريم بالمطر السماوي وأثمرت باقة الافراح وأنبتت البرايا » .

٤ – يوم الخميس

تهتف البرايا وتقول :

« السلام معك ايتها العذراء والدة الله المقدسة بحاسن القداسة . ابتهلي الى ابنك ليمنح الكنائس والاديار امانا وسلاما ببراقته وشفاعتك . . . السلام عليك يا احمل النساء المقدسة بحاسن . عليك السلام يا سحقاً منثوراً على البرايا . عليك السلام ايتها البهارة التي لم تنشق بوصمة » .

٥ – يوم الجمعة

« لم يظهر قطعاً ما بين العذارى والشابات في الاجيال بأسرها مثل مريم . وليس الذهب الابريزي ولا اي جمال كنفاوتها وجمالها . . . سفياً لك يا درة نقية لا وضر فيها ولا دنس . شاهد الملك عفافك فانحدر وتجسد فيك ليعتق آدم وذريته من عبودية الخطيئة » .

٦ – يوم السبت

« مثلك موسى بالعوسجة وداود ابوك بقبة العهد . وجدعون بالجزة والطل . ويعقوب بسلم ارتقى فيه البشر الى السماء . . . في الحق انك مثوى الله الذي لاح منك وكرم تذكارك وعظمه . . . أصبحت العذراء باكورة ومنها تسلسل الخلاص . . . سبحان الله العليم الذي

سبق فاصطفاك منذ القديم ايتها العذراء القديسة . والشكر ليسوع الملك الذي شاء فاتخذ جسداً منك . والتمجيد للروح القدوس الذي اتخذك هيكلاً وحلّ عليك . . . فليكن تذكار في الكنائس والديورة للعذراء النقية مريم والدة الله المتفردة بطهارتها وقداستها . . . لاحت العذراء بهاء جديدة . فيها لمع شمس البرارة واضاء المسكونة وعمّ ظلام الضلال . تبارك الذي انعم منها وعزز تذكارها » .

سادساً — الحبل بلا دنس وتعاظيم العذراء

المراد بالتعاظيم تقاريظ للعذراء نسبة الى اللفظة الاولى من تسبحتها الشائقة : « تعظم نفسي الربّ وتتهلل روحي بالله مخلصي » يتلوها السريان كل يوم في صلاة الليل . ويترنمون بها في الآحاد والمواسم ليلاً وصباحاً . والى القارئ ما نعربه عنها مما يتوط بموضوعنا :

١ً : اننا نبجلك ونجدك ونكرمك يا والدة الله . لان مستودعك الطاهر قد اتسع فحوى ابن الله الذي لا يحصره حدّ . انك أسمى من اجواق السماويين وأرفع من أجناد الكروبيين الكثيري الاعين .

٢ً : ان محاسنك السامية ايتها الخفية تذهل العقول وتدهش الالباب . انك امّ عذراء بتول والدة الله . وعروس مزدانة بالمحاسن جمعاء . . . تحتار العقول لدى تأملها مجدك وبهاءك ايتها القدّيسة . وتكلّ الالسن عن وصف مناقبك . فانت مقصورة حافلة بالزينة حلّ فيها يسوع الملك . وانت سفينة منجتنا كنز الحياة . . .

٣ً : اننا نبجلك يا والدة الله العذراء . يا نقية طاهرة نجيدها . واضحت نفسها مخزن الاقداس . وحوى مستودعها باعجوبة باهرة الاله الذي لا حد له .

٤ً : ينشد الاكليرس في النغمة السابعة : عليك السلام ايتها العذراء الطاهرة القديسة . يا لؤلؤة لا درن ولا عيب فيها . . قد حملتِ ابن الله الجبار حامل البرايا . اياك تغبط القبائل جمعاء . . . هنيئاً لك ايتها العروس الشريفة يا والدة مانح النور . ابتهجي لانكِ حملتِ في مستودعكِ من لا تسعه الخلائق طرّاً . افرحي خصوصاً ايتها الكريمة لانكِ اسمى من الكروبيم ! فاستأهلت ان تحملي فادي النفوس .

٥ً : وينشدون في النغمة الثامنة : اننا نمدحكِ بنغمة حلوة وانا نشيد روحية يا ام الربّ ملك الملوك السماويّ . لقد ولدتِ كلمة الآب باعجوبة باهرة

عوق العقول جميعاً . لاستر عني وارفع من جميع اجواق السريين !

اخيراً يرتل الكاهن في جميع الصلوات القانونية مساء وصباحاً وفي الساعة السادسة استغفارية عمومية يصدرها بهذه الصفات الكريمة فيقول :

« مؤدي الحمد لله السامي المجيد الذي شرف تذكار والدته في البر والارض – وفتح مدونة حلوة تلك المنحة الطوبى الفائق مجدها قبائل الارض القديسة المجيدة المباركة الرفيعة الشأن الدائمة البتولية المعوظة والدة الله مريم » .

سابعاً – الجبل بلا دنس وبطاركة السريان الكاثوليك

١ – البطريرك اغناطيوس اندراوس اخيجان (١٦٦٢ – ١٦٧٧)

هو اول بطريرك سرياني كاثوليكي جاهر بعقيدة الجبل بلا دنس ، ذلك ان الاب يوسف بسون اليسوعي لما عرض عليه هذه القضية في حلب صرّح قائلاً :

« اني اثبت ما عرضه عليّ الاب يوسف بسون اليسوعي في أمر براءة العذراء مريم الكلية الطهارة من الخطيئة الاصلية . وأقر بانه موافق للتعليم الارثوذكسي كما أعلنه كثيرون من الاباء الاقدمين ومن ملافنة الكنيسة السريانية »[1] .

٢ : البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث جروة (١٧٨٢–١٨٠٠)

نُكب هذا البطريرك المغبوط نكبات فظيعة فتاكة في اسفاره الشاقة انقذته من غوائلها مريم العذراء القديرة . وكان يحمل صورتها الكريمة المنقوشة على خشب ويستغيث بها في ملماته كأيا . ومنذ السنة ١٧٧٤ حتم على اولاد ابرشيّته الحلبية ان يحتفلوا بعيد الجبل بلا دنس . ثم نهى عن تقريب الذبيحة الالهية اي كاهن لا يبتدئ فيرتل في الصلاة الفرضيّة « تعظيمة » العذراء الجليلة[2] . ولمّا وصل الى لبنان عام ١٧٨٤ شاد باسمها المبارك دير الشرفة تيمناً باسم العذراء « سيدة النجاة » .

٣ – البطريرك اغناطيوس انطون سحيري (١٨٥٣ – ١٨٦٤)

في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ عند اساقفة السريان مجمعاً في دير سيدة النجاة بالشرفة واصطفوا بالصوت الحيّ السيد يوليوس انطون سحيري مطران ماردين بطريركاً انطاكيّاً . فسألهم ان تقام حفلة تنصيبه في ٨ كانون الاول تيمناً

---

١) المشرق ٧ : ١٩٠٤ : ٤٠٢

٢) مخطوطة دير الشرفة ١٩ : ٢

بعيد الحبل الطاهر بسيدتنا مريم العذراء المنبوطة . وكان قد بلغه صدى صوت إمام الاحبار البابا بيوس التاسع الطيب الاثر مذيعاً تلك الحقيقة الدينية محرضاً اولاده الكاثوليك عرباً وشرقاً ان يقيموا في اثناء السنة ١٨٥٤ حفلات يوبيلية تكريماً للعذراء البريئة من الدنس استمطاراً لنعمها وبركاتها .

وفي حزيران السنة عينها ارتحل البطريرك الى عاصمة الكثلكة ووشحه ابو المؤمنين في ٢ تموز بالدرع المقدس . ومما صرح به البطريرك يومئذٍ لقداسته انه معوّل ان يؤسس كاتدرائية في ماردين مركز كرسيه تيمناً باسم العذراء المنزهة عن كل وصمة ودنس . ابتهج الحبر الروماني الابتهاج كله وكتب رسائل توصية الى احبار فرنسة وبلجيكة وهولندة وزعمائها ليساعدوا البطريرك الانطاكي في انجاز رغبته المقدسة . فزار البطريرك تلك العواصم وانثالت عليه الحسنات السخية والتحف الثمينة وعاد الى رومية يؤدّي حميم الشكر لخليفة شمعون الصفاة ومنها سافر الى ماردين ووضع اوّل حجر لبنيان الكاتدرائية المريمية ودشنها في ٥ آب ١٨٦٠ باحتفال منقطع النظير اذ كان جمهور المؤمنين يذرفون دموع البهجة والشكر لله عزّ وجلّ ولسلطانة الحبل بلا دنس ولبطريركهم المحبوب.

ولم يكتفِ البطريرك بذلك بل سار الى المؤجل وطنه وأسنى لاولاده المواصلة ٨٠ الف غرش ذهباً لتشييد كنيسة كبرى باسم « العذراء الطاهرة » واضاف الى ذلك المبلغ مبلغاً ثانياً لاجل انجازها وقس عليها كنيسة بغداد . واتصف هذا البطريرك الطيب المأثر بغرط غرامه بالعذراء فابتنى باسمها المبارك عدّة كنائس . واعتاد في اواخر عمره ان يجتمع عشيّة كل يوم بابناء الكهنة ويتلو معهم السبحة الوردية . وانتقل الى راحة الابرار في ١٦ حزيران ١٨٦٤ وهو يهتف ذات المزار « يا عذراء ! يا عذراء ! » .

٤ — البطريرك اغناطيوس افرام رحماني (١٨٩٨ — ١٩٢٩)

اغتنم هذا البطريرك المنبوط فرصة مرور نصف قرن على اعلان عقيدة الحبل بلا دنس فاقام في كنيسة بيروت عام ١٩٠٤ حفلات تقوية جميلة دعا اليها السادة الاساقفة الكاثوليك واكليرسهم . وفوّض الى رهطٍ منهم ان ينظموا بلغات شتى تقاريظ للعذراء الطهور الجزيلة قداستها . فلبوا طلبه وانتهت الحفلات على اتم ما يرام من الرونق والابهة والخشوع . وختمها البطريرك الجليل بموعظة

رائعة عدد في مناقب العذراء ولا سيما الحبل بها المنزّه عن كلّ عيب ودرن . ثم اصدر منشوراً في هذا العدد اقتضب اعلب بيّناته من آباء السريان ولا سيما من ابينا مار افرام الملفان الكبير وبعث به الى جميع الابرشيات اللاتذة بكرسيه الانطاكي . واستصنع اثنتي عشرة تحفة ذهبية كلّل بها تاج صورة العذراء الكبرى في دير سيدة النجاة بالشرفة .

٥ – الكردينال البطريرك اغناطيوس جبرائيل تبوني (١٩٢٩ –)

نُكب هذا الحبر الانطاكي المغبوط بتهمة فظيعة كادت تقضي على حياته الثمينة . ذلك انه صباح اول ايار ١٩١٨ قُبض عليه في ماردين واستيق الى المحكمة وصدر الامر بنفيه . وفي ١٧ حزيران غادر ماردين ابرشيته وسافر الى حلب محفوراً بالجند . وفي ٢٢ الشهر عينه استُدعي الى دائرة الاستنطاق فلم يثبت عليه المستنطق حجةً فاعادوه الى السجن واثروى فيه حتى السبت ١٠ آب وهو يستغيث برب الرحمات وسيدة النجاة لينجو من تلك الفائلة الفتاكة . ويوم الخميس ٥ ايلول استيق المطران المحبوب الى جبل سمعان وحُشر في مغارة ضيقة مستكرهة . وظلّ الاب يوسف ربّاني[1] الهمام يفرغ الجهود كليها في تخفيف الشدة عن مطرانه الجليل ويودّ لو يفتديه بنفسه غير مبالٍ بما يحيق به من الخطر . وفي ٢٩ ايلول استُدعي تكراراً المطران جبرائيل البريّ الى المجلس العرفي ثم أُعيد الى سجنه .

استيقن المطران المحبوب بدنو الاجل بسبب استحكام الوهن في جسمه وتفاقم عذابه فلم يَرَ الّا ان يجدّد ثقته البنوية بالعذراء سيدة النجاة وامّ الخلاص صباح اول تشرين الاول معتقداً الاعتقاد كله بانها تنقذه من تلك الورطة في احد وردتيها المباركة . وقد أنجته تلك العذراء القديرة الكريمة في ذلك النهار عينه وسارع الى كنيستها في حلب وجثا يشكر للعناية الربانية عميم فضلها والعذراء الكريمة وفور جميلها . وعند الما. حمل صورتها المقدسة وطاف بها في الكنيسة بين اناشيد الاكليرس والمؤمنين.

على هذا الاسلوب أنقذت العذراء البطوف ابنها الوفيّ فنذر عربوناً لولائه

١) ارتقى عام ١٩٢٩ الى الكرامة الاسقفية ليرعى ابرشية حمص وحماة وتوابعها .

ووفائه لجميلها واحسانها ان ينشر عبادة رديتها ويسبيها شفيعة ومحامية خصوصية للطائفة السريانية جمعاء . ثم اذاع عام ١٩٣٥ رسالة رعوية بديعة استرسل فيها في وصف مفاخرها النادرة ومزاياها الحلوة شفعها عام ١٩٥٠ برسالة ثانية في فرصة اعلان انتقالها بالنفس والجسد الى النعيم السماوي . وصمم ان يعزز ديرها في الشرفة بلبنان فاخذ منذ عام اول يؤسس بجانبه بناء فخماً ضخماً . وما برح العملة يشتغلون به . كافأته العذراء السخية باغزر البركات وأوفر النعم وأطول الاعمار .

٦ – السيد اقليميس يوسف داود مطران دمشق (١٨٧٩ – ١٨٩٠)

جاد المولى السخي على هذا الحبر النبيل بتوقد الفكر واتساع النظر وطول الباع في شتى العلوم واللغات . فصنف كتباً جمة تُعدّ من أثمن الخرائد وأدق المواضيع . وتفرّغ مدة عشرة اعوام للنظر في كتب الفرض القانوني وتصحيحها وتنقيحها وضبطها بالشكل الكامل . وجعل منذ السنة ١٨٨٤ ينشرها بالطبع . ودبّج المجلّد الاول الخصوصي بعلوات قانونية يترنّم بها الاكليرس في عيد الحبل النقي من الدنس صنف هو معظمه ونقل بعضه عن أئمة السريان واللاتين . فجاء فرضاً جميلاً بديعاً يستحق لاجله ثواباً وافراً من العذراء امّ العفاف والطهر والقداسة وثناء جزيلاً متواصلاً من الاكليرس السرياني . تغتمد الربّ نفسه باغزر رحماته .

هذا وتضرب الصفح عن احصاء الكنائس التي أسسها آباؤنا المغبوطون في مختلف الابرشيات تبركاً باسم والدة الله المنزّهة عن كل وصمة . أقدمها كنيسة سيدة الانتقال في حلب وسيدة النجاة في دير الشرفة والحبل بلا دنس في ماردين والطاهرة في الموصل وكنيسة الحبل بلا دنس في بغداد . وقس عليها كنيسة البصرة وكنيسة دير الزور وكنيسة قطنة بدمشق وكنائس النبك وحماة وزيدل بابرشية حمص وسيدة بياي بالقاهرة والاسكندرونة والبشارة ببيروت والانتقال في الحسجة والقامشلي الخ الخ . نضيف اليها كنيسة العذراء في كمبو مارسيو برومية العظمى وقد منّ بها على الطائفة السريانية البابا بندكتوس الخامس عشر الطيب الآثار والمآثر . وكنيسة الانتقال التي جاد بها الآباء الفرنسيسيون الافاضل على السريان في طرابلس .

ويقيم السريان كل عام ١٢ موسماً للعذراء الجليلة : ١ : موسم الحبل بها بلا دنس . ٢ : ميلادها . ٣ : تقدمتها للهيكل . ٤ : احد بشارتها . ٥ : عيد بشارتها . ٦ : زيارتها لاليشباع . ٧ : تهنئتها بميلاد المخلص وحيدها . ٨ : تقدمتها ابنها في الهيكل . ٩ : انتقالها الى السماء . ١٠ : استمناح بركتها للزروع . ١١ . وكذلك للسنابل . ١٢ : الكنيسة الاولى التي تأسست باسمها . وننتبه القراء النجباء ان عيد انتقال العذراء يدعى كذلك « عيد الجفنة » . فالسريان يستغيثون بالعذراء في مواسم انتقالها ومباركتها الزروع والسنابل مستمنحين بركتها للقمح والعنب كي يُعَدّا للبرشان والخمر في تقريب القدّاس الالهيّ .

الخاتمة

يحقّ إذن للكنيسة السريانية ان تجاهر على رؤوس الملأ بافواه جميع أبنيتها النظام وملافنتها الاعلام مصرّحة بان قداسة العذراء والدة الله عزّ شأنه تضاهي قداسة ابنها يسوع قدّوس القديسين . وقد جاد الرب السخي عليها بهذه النعمة المتأثرة منذ اللحظة الاولى لحبلها في حشاء امها حنة بأقدس قداسة وأكمل طهارة وأسمى نقاوة . فهي أقدس من السواريف وأرفع من الكواريب واكمل من جميع اجناد الملويين وكفى .

تلك زنبقة جنيناها من روضة الكنيسة السريانية وزففناها الى القراء الاحبة ليضاعفوا شغفهم بالعذراء الطاهرة النقية من كل وصمة وينعشوا نفسهم بشفاعتها المقبولة .

ويلذّ لنا ان ننهي المقال بعبارات لطيفة سديدة يختم بها الاكليرس السرياني صلواته القانونية مساء وليلاً وصباحاً هذا تعريبها :

« نجنا يا رب من الشدائد والاخطار . وأنقذنا من النوائل والاهوال ... بشفاعة وحماية ام الرحمة المتوشحة بالنقاوة والانتصار . الملهاء الثانية . فخر المسيحيين الحنيفيين . العذراء المترهة عن كل وصمة ودنس . القديسة والدة الله مريم » آمين .